وطن آخر
لا أدري أكان الشغف بها اختيارًا أم قدرًا ساقني إليها منذ أول لقاء، غير أني كلما دنوت منها ازددت لها قربًا، وكلما حسبت أني استوفيت منها بعض ما عندها، فتحت لي بابًا وراء باب، وكشفت لي أفقًا وراء أفق.

هي حبيبة ما قصدتها يومًا إلا آنَسَتْني، ولا آويت إلى رحابها إلا كشفت لي سرًّا جديدًا..أجالسها ساعاتٍ طوالًا فلا أملُّ حديثها، وأراها في كل يوم على صورة لم أرها عليها بالأمس، فتارةً تلبس ثوب الحكمة وتارةً تتوشح بُردة الشعر وتارةً تقف في جلال الملوك وهيبة العلماء.

وكم آسفني أني جاورتها طويلًا وما وفيتها حق قدرها! ومررت بجمالها مرَّ الغافل على الروضة الغناء، الذي تقع عيناه على الألوان ولا يدرك ما وراءها من أسرار، وكم سمعت أنغامها من غير أن أصغي إليها. كنت أعيش في رحابها كما يعيش المرء إلى جوار البحر، يراه كل صباح ولا يعرف ما يختبئ في أعماقه من لآلئ ودرر! ثم أخذت تكشف لي ما خفي عن عيني الغافلتين، فإذا ما ظننته شاطئًا كان بحرًا، وإذا ما حسبته نهايةً كان بداية.

وكم من ليلةٍ خلتُ فيها أني زائر، فإذا بي المقيم وهي المنزل، أدخل عليها من بابٍ صغير فأجد وراءه مدينة، ثم أعبر المدينة فأجد وراءها عالمًا، ثم أمضي في ذلك العالم حتى يخيل إليَّ أن الأرض أضيق من بعض ما تحتضنه من أسرارها.
ولقد استأثرت بكثيرٍ من وقتي، ودعتني إلى ساعاتٍ من السهر، وأيامٍ من التنقيب، ورحلاتٍ طويلة بين الكتب وصفحات الدواوين، منتقلاً من صخب الأيام وضوضائها إلى عزلةٍ أجد في رحابها نفسي.
.غير أني ما وجدت مشقة فيما بذلت لها، فما قضيت من وقت في صحبتها إلا عاد عليَّ أضعافًا من المتعة والمعرفة، وما سهرت ليلةً في رحابها إلا أشرقت في نفسي صباحاتٌ من الفهم والبصيرة.
وإن سُئلتُ عنها تَبَسْمتُ وأجبت: هي اللغة العربية، تلك التي كلما أبحرتُ في أمهات كتبها ازددت يقينًا أني ما بلغت الشاطئ بعد، وكلما غصت في بحارها خرجت بدرّة جديدة.
هي الحبيبة التي لم تخذل صاحبها، والرفيقة التي ما بخلت بعطائها على من أحسن صحبتها، والميراث الذي أفخر بالانتساب إليه.
فإن كان للمرء وطنٌ يسكن أرضه، فإن لي وطنًا آخر أسكن حروفه، وطنًا كلما ازددت فيه إقامةً ازددت له حبًّا وكلما ازددت منه نهلًا ازددت به فخرًا و اعتزازًا.